Dialogues | حوارات

حوار مع أ.د عبد المجيد بوشبكة[١]
حول : " الدراسات القرآنية: الواقع والإشكالات وآفاق المستقبل"
يحاوره: يوسف عكراش[٢]

Dialogue with Prof. Dr.: Abdel Majid Bouchabaka on "Quranic Studies: Reality, problems, and future prospects"
by: Youssef Akrache

(١)أكاديمي مغربي. أستاذ التعليم العالي بجامعة شعيب الدكالي، مدير مختبر دراسات الفكر والمجتمع، ورئيس المركز الأكاديمي للثقافة والعلوم، ورئيس شعبة الدراسات الإسلامية، ومنسق لعدة وحدات علمية من أبرزها تكوين الدكتوراه (التكامل المعرفي)، يشرف على عدة تكوينات وتدريبات بيداغوجية جامعية، له العديد من الكتب والدراسات العلمية في مجلات وطنية ودولية محكمة، له أيضا العديد من الأعمال العلمية ذات صلة بمجال الدراسات القرآنية لم تطبع بعد

(٢) أستاذ التعليم الثانوي، باحث في الدراسات القرآنية والقضايا الفكرية والتربوية، أستاذ بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين الدار البيضاء- سطات، نشرت له العديد من الأعمال العلمية ضمن كتب جماعية ومجلات علمية محكمة محلية ودولية.

السؤال الأول:

في البداية نرحب بكم ونشكركم على قبولكم دعوة دورية نماء لإجراء هذا الحوار، ونفتتح أسئلتنا بسؤال الماهية؛ فما التعريف الذي يمكن أن نجده عند فضيلتكم لمفهوم الدراسات القرآنية لاسيما وقد زخرت الساحة العلمية قديمًا وحديثا بمفاهيم عدة لها؟ وهل الواقع البحثي المعاصر للدراسات القرآنية متطابق مع معايير تعريفكم؟

بداية قبل خوض أطراف الحديث أود أن أشكر مركز نماء للبحوث والدراسات على ما يقدمه من خدمة واعدة للمجتمع البحثي وفق رؤية محكمة ومتكاملة، ونخص بالذكر هذا المنبر والمقام الفكري دورية نماء على الاستضافة وإتاحة الفرصة للتعبير عما في خلد النفس من همٍ واهتمام بمجال الدراسات القرآنية، وعودة للسؤال المذكور والمتعلق بالتعريف، لا شك أن من المعلوم أن الدراسات في اللغة من الدرس، ودرسُ موضوع ما يعني تقصيه والبحث فيه، والمقصود بالدراسات القرآنية الدراسة بمفهومها الشامل؛ أي:» كل الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم في العصر الحديث، شكلًا ومضمونًا».

لكن المتأمل في النتاج المعاصر لهذه المادة سيلحظ وجود بعض التوجهات المتأثرة بالدراسات الغربية سلبًا أو إيجابًا، تحاول أن تخلق بينها وبين القرآن علاقات، قد تتعارض ومقاصد القرآن وغاياته الإنسانية العالمية. الشيء الذي يجعل الدراسات القرآنية محاصرة بين تيارين متجاذبين. وهذا يجعلها إما رهينة توجهات الفيلولوجيا أو الأنتروبولوجيا، أي «دراسة النص القرآني الكريم، آيًا ورسمًا، نزولًا وتاريخًا. أو تحنيطها في دوامة الوعظ والإرشاد والارتهان للتقليد. وإن كانت لا تخفى أهمية هذا الجانب؛ لكنه غير مستوعب حقيقة لكل ما يحمله وعاء الدراسات القرآنية من حيث المفهوم العام.

وقريب من التعريف الذي طرحناه وخاصة من حيث الشكل، ما يوجد ببعض المراكز والمؤسسات العالمية الرائدة أمثال مشروع «كوربوس كورانيوم» بألمانيا، و «الجمعية الدولية للدراسات القرآنية» بأمريكا، و»مجلة الدراسات القرآنية» بلندن.

السؤال الثاني:

بناء على هذا التعريف في ارتباطه بالواقع البحثي، كيف تقيمون واقع الدراسات القرآنية في الساحة العلمية؟ وهل ظهور المستجدات العلمية له تأثير على الدراسات القرآنية؟ وهل هذا التأثير إيجابيًا يسهم في إثراء هذا الفن أم هو سلبي يفضي إلى تقهقر وتعثر؟

لا شك أن الواقع يتحرك بسرعة متزايدة وفي كل المجالات، لا يلحظها إلا المهتمون، وعليه فالدراسات القرآنية، ضمن جبة البحث

العلمي، اليوم تعيش مخاضًا عسرًا ولعل السنوات الأخيرة بدأت تعيش تحركاً إيجابياً؛ سواء تعلق الأمر بالوضع الداخلي للأمة، أم على المستوى الخارجي.

فداخليًا وبالرغم من ظهور باحثين ومؤسسات ومراكز بحثية، فإن غياب الشروط المواتية والمناسبة لمواكبة المستجدات وتسارع الأحداث، أثقل كاهلَ الباحثين وأضر بعض الشيء بمصداقية البحث العلمي، ومن ثمة مازال وضع الدراسات القرآنية في واقعنا يراوح منطقة رمادية، يئن فيها تحت وقع ضغوط وتحديات الواقع العام الذي تتقلب فيه الأمة. ذلك أن كلفة البحث العلمي في عالمنا الإسلامي عموما والعربي بوجه خاص، لا يمكنها الوفاء بالحد الأدنى من شروط البحث العلمي بله مواكبة التحديات العلمية العالمية، ومنه فإننا نأمل توسيع دائرة الهم والاهتمامات بمجالات الدراسات القرآنية، والعناية بالمتفوقين، وتأسيس المراكز والمخابر الجادة في اشتغالها وتحفيز العلماء بغية المواكبة.

أما خارجيًا فإننا إن تجاوزنا الحقبة الأولى للدراسات الاستشراقية الملغومة ما بين القرنين ١٨و١٩ خاصة زمن نابوليون، أمثال «جولدتسيهر» (١٩٢١م) مؤلف كتاب «مذاهب التفسير الإسلامي» و«نولدكه» (١٩٣٠م) صاحب كتاب «تاريخ القرآن» الذي لا يستغني عنه مستشرق، و«آرثر جيفري» (١٩٥٩م) وله كتاب «مصادر تاريخ القرآن»، والتي كان لها تأثير واضح في الدراسات الاستشراقية حينها. باستثناء تلك الفترات فإن كثيرا من الدراسات الاستشراقية الأخيرة إن لم تعتمد المنهج الفيلولوجي، فغالبها يعول على المنهج الأنثروبولوجي خاصة والمناهج الاجتماعية، وبذلك فشلت كل محاولات التشويش من بعض التوجهات والباحثين والمقلدين، فيما بات كثير منها اليوم يغلب عليه الطابع الأكاديمي. ولعل ذلك يرجع إلى فلسفة العولمة التي سيطرت عليها الأهداف المادية المباشرة بالأساس، وحلت المؤسسات محل الأفراد الذين كانوا يتحملون ثقل هذه الأدوار.

بناء على ما سلف، ونظرًا لتوفر أهم شروط البحث العلمي، قد نرى ميلاد واقع أفضل حالًا بالنسبة للدراسات القرآنية. ومن أهم أسباب ذلك استفادة الدراسات القرآنية من ظروف وواقع الباحثين والمؤسسات والمراكز البحثية التي ترفل في كثير من الفرص المتاحة في أكثر من قارة وبلد في عالمنا الفسيح اليوم. سواء في الشرق أو الغرب.

وفي ظل واقع البحث العلمي الآنف الذكر، وبخصوص المستجدات العلمية وعلاقتها بالدراسات القرآنية، فلا أملك إلا أن أكرر القول الشائع الذي يفيد أن العالم اليوم أصبح عبارة عن قرية صغيرة. لذا فالمستجدات العلمية والمنهجية تتزاحم في واقعنا، لكن من يستفيد منها وكيف؟ وأجدني حزينًا وأنا أرى كثيرًا من المعنيين بالبحث العلمي في واقع أمتي، يوظِّفون بعض فُتات البحث

العلمي في الهرولة نحو تطبيق شراكات، واجتهاد في تحسين علاقات من خلال الاكتفاء بما هو موجود أو مفروض. لذا من المؤسف أن نجد مجالات الدراسات الإسلامية عمومًا والدراسات القرآنية بوجه خاص، آخر من يستفيد من «ثمار» هذا التسابق المحموم للاستفادة من الكسب الإنساني في مختلف المجالات المنهجية والعلمية والثقافية عبر أوساط ووسائط واسعة من ميادين البحث العلمي داخل أمتنا.

وعلى العكس من ذلك يؤسفنا أن نرى المبادرات والمشاريع تلو الأخرى على المستوى الخارجي بخصوص الدراسات القرآنية، ومما يبكي العيون دمًا، أنه في الوقت الذي يُضيق على كل ما هو ديني أو قرآني في كثير من واقع أمتنا، نرمق تزايد المبادرات المنفتحة نحو كل ما هو إسلامي وقرآني في الضفة الأخرى. فلو صوبنا النظر نحو عدد الأعلام والمراكز والمؤسسات التي باتت تهتم بالدراسات القرآنية لخجلنا من أنفسنا. ويكفينا علمًا أن جلّ المؤسسات الجامعية في الشرق والغرب كما في الشمال من عالمنا الفسيح لا تكاد تخلو من مؤسسة أو كلية أو قسم أو جناح لدراسات الإسلامية وعلى رأسها الدراسات القرآنية، وقد عاينت ما يثلج الصدر بكثير منها في أوروبا وأمريكا.

من أجل ذلك أقول: إنه في الوقت الذي يسعى بعض المحسوبين على أمتنا جاهدين إلى عزل العلوم الدينية عن المؤسسات العلمية، أو تهميشها في عالم العلوم بكل أصنافها، ودفعها إلى مؤخرة الصفوف بعد ما كانت تقودها، في هذا الوقت نجد كثيرًا من بلدان العالم تحتفي بتكامل العلوم وتوسعها، كما لاحظنا تتزاحم العلوم وتفرع ميادينها، الشيء الذي يزيد من قناعات بمستقبل جيد للبحث في الدراسات القرآنية والتسابق إلى إظهار جواهر ومحاسن القرآن الكريم للعالمين، وفي كل ذلك تحقيق لوعد الله المتمثل في قوله سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

السؤال الثالث:

كيف يمكن ربط حقل الدراسات القرآنية بالواقع المعاصر والإسهام في حل بعض أزماته التي باتت تنخر في عمق ثوابته كظاهرة الإلحاد والانتحار وغيرها؟

الأصل في الإسلام، كما بينه صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أنه منهج حياة. وعليه فالأصل في كل دراسة تنطلق من القرآن أن تتغيا الإنسان ورسالته في الدنيا والدين، وإلا فليس من العدل أن تنسب إلى القرآن، إذ موضوع الدراسات القرآنية هو القرآن الكريم، وإنه مما أجمع عليه علماء المسلمين أن رسالة القرآن وهدفه المحوري هو الهداية والإرشاد، وغير ذلك لا يعدو كونه منطلقات ووسائل. وعليه فإن كل دراسة قرآنية لا تأخذ هذا الهدف السامي في الحسبان، أقدر أن

نسبتها إلى القرآن تعد من باب المجاز ليس إلا. ولك أن تتأمل قول الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾.

إن النصوص القرآنية التي تبين الأهداف السامية وتحدد خارط طريق لحياة حقيقية كثيرة في عدها، وافية في مضامينها، وهي بمثابة مستودع وأرض خصبة لكل المهتمين بمجال الدراسات القرآنية، وهي تنتظر الكفاءات القادرة على قراءتها ومدارستها وبيان ما تخزنه من معانٍ إنسانية، وما تكتنزه من توجيهات بانية لعالمنا المعاصر.

وعليه: فإن جل الظواهر التي أنتجها واقع الناس تعد انعكاسًا لمرايا ذواتهم وبحسب علاقتهم بالقرآن الكريم، وفهمهم لنصوصه التي تتضمن نُسغ الحياة. كما أن ما يزاحم العالم اليوم من ظواهر سلبية، فردية أو مجتمعية أو عالمية، لا تعدو أن تكون انعكاسًا لنقص في التصور أو انحراف عن جادة الفهم لرسالة القرآن، وهذا مجال أيضا هو مجال أرحب وحقل أخصب وبحر لا ساحل له بالنسبة لكل المعنيين بالدراسات القرآنية في العصر الراهن. فالقرآن لم ينزل ليتلى على الأموات بل لترشيد الأحياء، ولا لتُزين به الجدران، بل ليُجمَّل به الإنسان فكرًا وفعلًا. قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ولا يتحقق هذا الجمال إلا بمعرفة رسالات القرآن وعلى رأسها الهداية، التي جعلها الله لنا مطلبًا كثير التكرار، ولا هداية إلا باتباع هذا النور حتى نستبين الصراط المستقيم. إنها معادلة سننية وكونية قبل أن تكون قاعدة شرعية ومنحة ربانية. (الهداية تساوي اتباع النور). فكل دراسة تدعي نسبًا إلى القرآن الكريم ولا تراعي هذه الجواهر السننية، والقواعد الربانية، هي مجرد ادعاء لا يمكنها أن تلو على شيء.

والخلاصة أن هذا واجب المهتمين بالدراسات القرآنية في زمن العولمة من بني قومنا، فلا وجود لظواهر سلبية مستعصية عن الحل في المنهج القرآني. فإذا كان هدف الإنسانية السامي هو الفلاح والفوز، ذلك الهدى الذي وعد الله به عباده. ولا سبيل لتحقيق ذلك إلى عن طريق النور. نور الله، نور الرسالة، نور الإسلام، نور العلم، نور الحق. فكم من بحث وكم من قضية قد تفتح للوقوف على مضامين هدايات الله وأنواره بين خلقه. كم يحتاج أهل الدراسات القرآنية من بحوث ومخابر ومؤسسات للكشف عن هداية الله للناس، ولبيان أنواره تسعف للوصول إلى تلكم الهدايات. فكم نحتاج من طاقات وجهود لبيان ومدارسة بعضًا من النصوص المزلزلة بين دفتي المصحف الشريف، منها قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾. وقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾. وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ

نُـورًا فَمَـا لَـهُ مِـن نُّـورٍ﴾. صحيح أن نجومًا من علمائنا الأبرار في مختلف الديار قد أفادوا في بيان كثير من نصوص كتابنا العزيز، وأجادوا في تفسير مبانيها، وتأويل معانيها؛ إلا أن تطورات الحياة ومستجدات الواقع تفرض على الناس تعميق النظر والبحث عن أجوبة للأسئلة التي لم يطرحها جيل السلف من علماءنا. وما معنى صلاحية النص القرآني لكل زمان ومكان غير ذلك؛ عبر التشمير للبحث عن أجوبة لأسئلة الحياة المعاصرة وقضاياه المتطورة وظواهره المحيرة.

وإن الإنسان الذي هُدي إلى سواء السبيل، سيعلم بالتدريج أنه أخ كل إنسان، وأن قَدَره أن يتقاسم الأدوار والأعباء مع إخوانه، وأن ما ضاقت به الحياة الأولى سيجد متسعا وعوضا في الحياة الأخرى، بهذا فقط يمكن للعالم اليوم أن يُلجم شيطانه، ويُقلل من فساده الذي تجاوز الأرض ليعم البحر والجو، ويخفف من غلواء عنفه الذي تجرعه في كل مجتمعاته، وعبر مختلف مراحله ومجالات حياته؛ ولا مخرج للعالم اليوم من هذه الانتكاسة الشاملة إلى بالرجوع الشامل إلى هُدى الله وتلمُّس أنواره. وهذا هو التحدي الذي يواجهه أهل الدراسات القرآنية اليوم والمهمومين بالبحث عن أدوية لعالمنا المريض.

كما أن تفلُّت المهتمين بالدراسات القرآنية والبكاء على الواقع والتهرب من المسؤولية والفشل في إحاطة الإنسان بعظَمة الخالق الرحمن وقدرته، وبيان عظيم شأنه وسلطانه، لتذكير الإنسان بحقيقته حتى يدخل باب الخوف ويقرع باب الرجاء، كل ذلك لن يثمر إلى علقما، ويصدق فينا المثل السائر: **«من زرع التسويف، يحصد الترجي»**.

لكن إن استطعنا في هذا المجال -الدراسات القرآنية- المثابرة في قضايا ومناهج تحصيل الهداية واتباع نور الله، لا يمكن بحال إلا أن نصل مهما طال الطريق وكثرت أشواكه؛ حينها سيكون هناك علاج وترياق لكل الأزمات التي حطت رحالها في الواقع المعاصر وخاصة في صفوف الشباب كالانتحار والإلحاد وغيرهما، وهذا ما علمنا التاريخ. ونتأمل جميعًا ما نعيشه في بطون الكتب مع الجيل الفريد من صحابة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. الذين تصدروا الأمم وساسوها بعدما كانوا خدمًا وعبيدًا لها.

السؤال الرابع:

ما أبرز الآفات التي يواجهها حقل الدراسات القرآنية من خلال واقعنا العلمي المعاصر؟ وكيف يمكن تجاوزها؟

يمكن الحديث عن أبرز الآفات التي يواجهها حقل الدراسات القرآنية من خلال واقعنا العلمي المعاصر من جهتين:

أولًا: بالنسبة للمجتمع: عدم إدراك حقيقة قيمة القرآن الكريم وعظمة أحد مقاصده أولا وهو توحيد كيان الأمة، ولكن الملاحظ غلبة

الصورة على الحقائق، فبرزت تجاذبات حادة للاتجاهات الفكرية والتيارات المذهبية نحو القرآن فصارت هذه الأخيرة الدراسات القرآنية تتنازعها مؤثرات متعددة جعلت -المجتمعات- أحياناً تنطلق اتجاهها من مقدمات ومحددات خارجية يريد أن يستدل لها أو عليها من خلال زاوية محدودة وضيقة للمذهب أو الجماعة أو التيار الفكري.

ومن جهة أخرى تتعامل العديد من الجهات مع الدراسات القرآنية تعاملًا سطحيا للغاية يلحظ معه كثرت الحفاظ والقراء دون غيرهم، اللهم إلا إذا استثنينا بعض المؤسسات اليتيمة التي تطرق باب الدراسات القرآنية برؤى رصينة ومتكاملة، أما الجامعات فالعديد منها في ذيل التصنيف «العلمي» للجامعات الدولية. وإذا صوبنا النظر نحو بعض المؤسسات الرسمية نجد أحسنها مكبلًا بقيود مذهبية حينًا وإيديولوجية حينا آخر. أما إن صوبنا النظر نحو الإمكانات المرصودة للبحث العلمي فلا نكاد نستطيع المقارنة.

ثانيًا: بالنسبة للباحثين: فقد تعددت الآفات فينا. ويمكن إجمالها في ثلاث:

الآفة الأولى: ضعف الهمم: تجاه هذا الشق من الدراسات في ظل واقع ضعيف للبحث العلمي، تهتز معنويات الباحثين وتستسلم النفوس لداعي الواقع ومتطلباته، من غياب الشروط وتزاحم الأماني. حتى خارت الهمم، وبارت الحيل أمام الباحثين.

الآفة الثانية: آفة التقليد: التي غدت سمة عامة في جل الإنتاجات «العلمية» ولو جددنا عناوينها أحيانا، أو غيرنا مداخل أبوابها أحيانا أخرى. وعزمنا على الإبداع وأخذنا الكتاب بقوة لكان أفضل، لكن السكن في الماضي والتعويل على السلف، جعلنا ندور في فلك لا نتعداه. وفي الوقت الذي تصدر أعلام السلف حلقات العلوم وسيطروا على أسواقها، كان لهم من الحفاوة والمكانة ما نجده منارة للعالمين إلى اليوم. أما نحن فلم نستطع اليوم مجاراة التحديات، ولا حل المعضلات. فإن فاز بعضنا بفهم شيء من نصوص القرآن، لم يسلم من عتمة الواقع فضلًا. فلو استثنينا بعض المجالات الضيقة في عالم الطب والمال، مازالت جل أبحاثنا ضحلة، سطحية لا تستطيع السباحة في بحر واقع الناس العميق.

الآفة الثالثة: الجري وراء المباني وترك المعاني: ومن ذلك التعجل في البحث عن الشواهد والتسمي بالألقاب، حتى بات يصدق علينا قياسًا لما يقتضيه هذا الكلام قول أبي شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ) رحمه الله في كتابه المرشد الوجيز: «لم يبق لمعظم من طلب القرآن العزيز همة إلا في قوة حفظه وسرعة سرده، وتحرير النطق بألفاظه... وكل ذلك وإن كان حسنا ولكن فوقه ما هو أهم منه وأتم وأولى وأحرى، وهو فهم معانيه والتفكر فيه والعمل بمقتضاه».

وهذا ما جعل العديد من المهتمين -الباحثين وغيرهم- بالدراسات القرآنية

يتساءلون عن أسباب تخلفنا والقرآن بين أيدينا، فتوقف كثير منهم حول الوسيلة الكفيلة بتحقيق أهداف ومقاصد القرآن فينا، وكيف السبيل إلى فهم ذلك؟ فتوقف بعضهم عند دور التفسير وأهميته وقال آخرون بل نحتاج إلى تأويل نصوص القرآن بما يتناسب مع هذا الزمان، فيما نبه آخرون على أن تلكم الأهداف لا تتحقق إلا بتدبر القرآن الكريم وتلاوته حق التلاوة. والحال أننا في مسيس الحاجة إلى الجمع بين كل ذلك.

ويمكن أن نتجاوز هذه الآفات التي حطت رحالها بالمجتمع عامة والباحثين خاصة من خلال سد الأبواب التي كانت سببا في بروزها، بمعنى لما نقول إن من الآفات الجري وراء المباني وترك المعاني، فسد الباب في هذا المقام هو الانشغال بالمعاني وبذل الوسع في فهمها وتحقيق المراد منها، أما المبني يأتي تبعا للمعني وليس العكس، وقس على هذا الطريق علاج كل الآفات التي أصابت الدراسات القرآنية في واقعنا العلمي المعاصر.

السؤال الخامس:

يولي باحثون أجانب من شتى بقاع العالم كأوروبا وأمريكا... اهتمامًا متزايدًا بالدرس القرآني، وبعضهم قدم مشاريع بحثية تمتد لسنوات، ما هي خلفيات هذا الاهتمام ومقاصده برأيكم؟ وكيف تقومون جهودهم في هذا الدرس؟ وكيف يمكن برأيكم التعامل مع الدراسات المتخصصة الأجنبية، والتي يسعى بعضها إلى زعزعة الثقة تجاه صروح الدراسات القرآنية من خلال زوايا ورؤى متعددة؟

من بدع الدراسات القرآنية في زمننا، أننا نجد عددًا غير يسير من الباحثين ينجزون أعمالهم في شهور أو في أقل من زمنها المعقول، وقد هالني ما نقرأه حول سيرة عدد من المستشرقين وصبرهم عدد سنين لإنجاز بعض من بحوثهم، بل قد يتعدى الأمر إلى أن تشترك فرق في العمل العلمي الجماعي الجاد فيتمم اللاحق ما بدأه السابق. ولعل الكثير من الباحثين يستحضرون قصص ولادة عدد من هذه المؤلفات القيمة والرصينة وما أنفقت فيها من أموال وأعمار كما فعلت «زيغريد هونكه» في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» وكما فعل الألماني «فلوجيل» مع كتابه «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» الذي كان نواة ونبراس الشيخ «محمد فؤاد عبد الباقي» في كتابه الذي لا يستغني عنه دارس في مجال الدراسات القرآنية والإسلامية عامة وهو «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم». ومن النماذج الصارخة في صبر المستشرقين ومن ورائهم في الصبر والتضحية من أجل الدراسات القرآنية بما تعنيه من معاني عندهم، تضحية فريق مكون من ثلاثة أجيال بخصوص أوسع وأهم ما كتب في القرن العشرين حول القرآن الكريم، ذلك فريق وتلامذة المستشرق الكبير

«تيودور نولدكه» وهو كتابه: «تاريخ القرآن»، الذي أصدره سنة ١٨٦٠م واستمر بعده تلميذه «فريديريش شفالي» في إعادة صياغة الجزء الأول منه سنة ١٩٠٩، وقد وافته المنية بعدما أعده للطبع ثم أشرف على تصحيحه وإصداره «أوغوست فيشر»، وتكلف بإنجاز الجزء الثالث من الكتاب «غوتهلف برغشترسر»، لكن الذي أتمه بعد وفاته هو تلميذه «أطو بريتسل» بداية سنة ١٩٣٧م.

وفي تقديري المتواضع أن الدروس المستفادة كبيرة جدا نستلهمها من هؤلاء تتمحور حول كبير صبرهم على متاعب هذا الطريق ومعوقات السير فيه، من جهة؛ ثم جديتهم وإبداعاتهم في هذا الصدد. ناهيكم عن الإمكانات والشروط التي هيأتها لهم مجتمعاتهم، ماديًا ومعنويًا. هذا ما يجب ألا تحجبه عنا الأهداف المشبوهة لمعظمهم، ولا الخلفيات والشبهات التي يستبطنونها ويدسونها كلما سمحت الفرصة.

وفي السياق ذاته نجد من العباقرة المبدعين في رؤيتهم للقرآن والمستلهمين لقضاياه في مواجهة واقع العولمة المرير الفيلسوف والمحامي ورجل الدولة «علي عزت بيغوفيتش» رئيس جمهورية البوسنة والهرسك (ت ٢٠٠٣م) الذي استطاع بفضل رؤيته الحضارية الثاقبة للقرآن الكريم أن يُحرر شعبًا ويؤسس دولة. وكل ذلك بفضل دراساته القرآنية التجديدية، التي تجلت في مؤلفاته القيمة خاصة «الإسلام بين الشرق والغرب» الذي قال فيه: «إن الإسلام يجتهد في تنظيم هذا العالم عن طريق التنشئة والتعليم والقوانين التي شرعها، وهذا هو مجاله المحدود، أما مجاله الرحيب فهو التسليم لله».

بالقدر الذي نعتز بدراسات قرآنية من هذا المستوى العالي والرفيع، بالقدر الذي يؤلمنا ما نشاهده على المستوى الداخلي بين صفوف المهتمين بالدراسات القرآنية في أوطاننا. خاصة حينما نجد جيلًا من المهتمين بالدراسات القرآنية في العالم الغربي، يتسابقون ويبدعون في توليد الأفكار واستنطاق النصوص بشتى الآليات والمناهج التي توجه قضاياهم، ويقترحون حلولا للتحديات التي تعوق نهضتهم.

الخلاصة: إن تقييمي لأعلام الغرب بل والشرق في اهتماماتهم بالقرآن ودراساته، قد يكون سببًا في نهضة عليمة جديدة ستسطع شمسها من الغرب، ولست أدري إن كان ذلك سيسر «زغريد هونكه» أم يحزنها؟ وهي التي أنتجت أروع ما كتب عن حضارة العرب تحت عنوان «شمس العرب تسطع من الغرب».

وبالرغم من الأهداف الملوثة والسياسات المعوقة التي قد يلتحفها جل الأعلام أو تتضمنها بعض الأعمال، فإن روح التجديد كما الإبداع والجودة في كثير من هذه الأعمال لاينكرها عاقل. فلولا رجال أفذاذ ومؤسسات يتيمة تنوب عن الأمة، لتحقق لعدد من أعلام الغرب شرف السبق في غير ما مجال ونحن ورائهم نلهث ونشتم.

السؤال السادس:

كيف ترون موقع الدراسات القرآنية في ظل المناداة بالتكامل المعرفي، وخاصة أن التخصصات باتت تعاني من ضيق المسالك وانغلاق الأفق والامتداد؟

بداية لا شك أن الباحث الحصيف يلفي في النسق العلمي المتخصص أنه صار يعاني من أزمة امتداد مغلقة الأفق؛ مما نتج عنه عودة الاهتمام والعناية بالتكامل المعرفي في المشهد العلمي الراهن، إلا أن هذه العناية ظلت حبيسة أركان مجلات دون أخرى، الشيء الذي قد يحول بين التكامل المعرفي وبين المرامي المرجوة منه.

وإني لأعتبر أن قضية التكامل والتداخل قضية عابرة للزمان والمكان، أي أنها قضية جديدة قديمة. جديدة من حيث الاصطلاح ليس إلا؛ أما من حيث الموضوع فإنني أرى أنه لو أرادت أمتنا أن تفخر بشيء في تاريخها العلمي، لحق لها أن تفخر بتاريخها في مجال التكامل المعرفي بكل صوره ودلالاته. ويكفينا فخرًا أن نتحدث عن تجربة جامعة القرويين. فقد ضمت من العلوم أصنافًا ومن أهلها صنوفًا، تجاوزت العرب لتضم العجم، وتعدت المسلمين لتشمل اليهود والنصاري. وذلك في مختلف مجالات علم والمعرفة. وعبر نظرة عجلى في مقررات القرويين سنجدها تضم غضافة إلى علوم الوحي، علوم اللغة بجزئياتها، وعلم أسرار الحروف أو ما يسمى اليوم «السيميائيات»، وعلوم الآداب بفروعها، وعلم المنطق والكلام، وعلم التوقيت، وعلوم الحساب بفرعيه الجبر والمقابلة، وكثيرًا من علوم الطبيعيات خاصة الطب والصيدلة، حتى كانت المارستانات بالمغرب تضم قسما لدراسة الطب وأخرى للعلاجات. ثم كان بها علم الهندسة والفلك، وقد ظلت الساعة المائية التي صنعها علماء فاس بصومعة القرويين شاهدة على حسن صنيعهم في عدد من العلوم والفنون.

أما من حيث رجالات العلم والمعرفة فقد اجتمع في القرويين إضافة إلى أعلام المسلمين ووجهاء العلم من شيوخ وطلاب، عدد من اليهود والنصارى، الذين كانوا يحلون بالمغرب لأسباب مختلفة، لكن مكانة القويين وإشعاعه، إضافة إلى سمعة علماءه، دفع كوكبة مهمة منهم لمزاحمة الطلاب والجلوس إلى حلقات العلماء. وقد ذكر الاستاذ عبد الهادي التازي -رحمه الله-، في كتابه جامع القرويين، أصنافا واسماء كثيرة منهم. أمثال القسيس «نيكولا كيلينّار» ق.١٠هـ، ومنهم المستشرق الهولاندي «جاكوبيس كولييس» ق.١١هـ. ومنهم اليهودي الحاخام والفيلسوف موسى بن ميمون (ت ١٢٠٤م).

إن صور التكامل المعرفي التي بدأت تتلمس طريقها بعض الجامعات الدولية المتقدمة، عاشها المسلمون في أبهى صورها، حيث تشاركت العلوم واجتمع أهلها ليُخرجوا أجيالًا من المفكرين والمثقفين، رفعت راية العلوم وصدعت بالحق في كثير من بقاع العالم،

حتى بات طلاب العلم وأهله من الغربيين يتسابقون ليحصلوا شواهد جامعات الزيتونة والقرويين بعد غرناطة وقرطبة. وبقيت مؤلفات ومكتشفات المسلمين تدرس في عدد من الجامعات الغربية، في الفلسفة والطب والرياضيات والتصوف. كل ذلك نابع من مؤسسة المسجد، معلمة الدين وبيت المسلمين الذي تتساوي فيه مهام الدنيا والدين، بل إن الحياة الدنيا لا تعدو أن تكون مزرعة للحياة الأخرى، كما هو مفصل في نصوص القرآن الكريم. وذلكم شيء من عبق تاريخ الأمة الذي يجب على أهل المهتمين بالدراسات القرآنية أن يبينوه للعالمين، وأن يُحيوا ما ما اندرس من معالمه ومناهجه ومقاصده السامية.

ومنه فلا شك أن الدراسات القرآنية ليس ببعيدة عن الإسهام في تحقيق تكامل وتداخل المعرفة والعلوم، بل لا نبالغ إذا قلنا إن المعرفة الناتجة عن الدراسات القرآنية هي المحور لهذا التكامل المنشود بعد طول غياب، وذلك راجع لما يتميز به النص القرآني من خصوصيات لا توجد في غيره؛ ومن أهما: الربانية والشمولية والاستمرارية التي تفضي لتحقيق الهيمنة التي تجعله نصًا مهيمنًا على كل العلوم عابر لمختلف التخصصات، ولا أدل على ذلك مركزية النص القرآني بالنسبة للعديد من العلوم وليس فقط العلوم الانسانية والاجتماعية؛ بل حتى العلوم الحقة التي لا تكاد تخلو صفحات القرآن من إشارات وتوجيها منهجية أو معرفية تجاه هذا الشق من العلوم البحتة والدقيقة كما يحب أن يسميها بعض. ليبين لنا هذا الأمر ولو من طرف خفي أن الدراسات القرآنية قادرة على تحقيق التكامل المعرفي في عصرنا الراهن.

السؤال السابع:

شاع في البلدان الإسلامية وغيرها الانجذاب المفرِط تجاه الإيمان بالعلوم الحقة أكثر من غيرها، فكيف ترون علاقة الدراسات القرآنية بالعلوم الحقة في واقع غلب عليه الإيمان بما هو مادي قائم على التجربة؟

هذه من آفات عصر العولمة التي جعلت لكل شيء «قيمة مادية» فقط. ونظرًا لطبيعة الإنسان المغلوب المنبهر بالغالب دومًا، -على حد تعبير ابن خلدون-، فإن اكتساح العلوم الحقة للعالم الحديث وتأثر البلدان الإسلامية بالفلسفة المادية، ضمن تحولات فائقة عرفها العالم بأسره فضلًا عن العالم الإسلامي؛ كل ذلك على قيم المسلمين حتى خفت عندهم موازين الدين وأركان الاعتقاد، حتى لم يعد للناس ثقة إلا في الماديات. ناسين أو متناسين العلاقة الحميمية بين الإنسان وبين العلم بمختلف تلويناته.

ومن الغريب أن نتسائل: كيف يحصل التشويش أو الدعوة للفصل بين العلوم في عالم المسلمين، رغم الحيز الوافر الذي احتلته

النصوص القرآنية الداعية إلى العلم، بل وإلى شروطه وقواعده وآدابه من تأمل وتفكر وتدبر. منها للتمثيل لا الحصر فقط: قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزمر الآية:٩. وقوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطر الآية: ٢٨...إلخ، ويزيد هذا الرأي وضوحًا ما سجله لنا التاريخ من واقع المسلمين الذين يرجع لهم الفضل الكبير في نقل العلوم الحقة والدقيقة من النظر إلى التطبيق، وكان لهم فضل السبق في تصالح العلوم بزواج النظر بالتجريب والتطبيق، حتى كانت العلم بمفهومه الإسلامي حكرا على عواصم البلدان الإسلامية تقريبا كفاس ومراكش والقاهرة وبغداد والكوفة. كما تزال كثير من صفحات الكتب مزينة بأسماء أعلام العلم في مختلف المجالات، كابن سينا، وابن رشد، والفارابي، وابن البناء المراكشي والخوارزمي وابن النفيس وغيرهم كثير، الذين لم يتأثروا بالعلوم الحقة ولم يضيعوا نصيب العلوم الأخرى غير المادية، بل سعوا للمزاوجة بينها بعدل وانصاف ولكل ذي حق من العلوم حقه، وبذلك حققوا ما عجزت عنه الحضارة المعاصرة من أهداف إنسانية شاملة وهي «أنسنة العلوم».

ولا تفوتنا الإشارة إلى أن هذا التيار المادي الجارف الذي أثر في حياة الناس منذ زمن بعيد، يكاد يعم كافة الدول والمجتمعات. فكلنا قرأ أو سمع كيف كان فلاسفة اليونان وحكماؤهم يمجدون العلم والحكمة؛ وكيف أن أفلاطون فيما نُظر له بمدينته الفاضلة جعل الحكم والزعامة فيها للحكماء؛ لأنهم الأقدر على تدبير شؤون الناس وسياستهم. وقد استمر هذا التوجه مقدرا لدى كثير من أعلام العالم الغربي وفلاسفته أمثال «ديكارت» و«جون جاك روسو» و«فولتير» وغيرهم. حتى صار الفيلسوف الفرنسي «غاستون بلاشلار» (١٩٦٢م) رائد فلسفة العلوم والإبستمولوجيا، في العهود الأخيرة كما يتجلى ذلك في كثير من مؤلفاته خاصة كتابه «العقلانية التطبيقية»، ومما جاء فيه أن البحث سيرجع بنا دائما إلى المحور الفلسفي حيث تتأسس في الوقت نفسه الخبرة المتبصرة والاختراع العقلي، وباختصار إلى المنطقة التي يشتغل فيها العلم المعاصر. إن واقع الانحراف الذي يشهده العالم اليوم، كان نتيجة طبيعية للانحراف الذي حصل في الرؤية الغربية للعلوم، بعد أفول نجم العالم الإسلامي.

وإن ركوب الرؤية المادية والنظرة الأحادية للعلوم، لا شك سيقود العالم إلى واقع بئيس، تذوب فيه كل القيم الإنسانية التي كانت تتغذى على الرؤية المتوازنة للإنسان. أي: الإنسان الجسد الروح والنفس، الإنسان العقل والفكر، الإنسان الجسد والمادة. كل تلكم الأسباب أثمرت واقعا مريرا سادت فيه الرؤية المادية لكل شيء؛ فكان طبيعيًا أن «يغتال» الإنسان. الإنسان الروح والنفس، وأن يشوه الإنسان العقل والفكر، ليعج العالم المعاصر بإنسان المادة والجسد والشهوة. حتى يكرم في

كل ميدان، وتفتح أمامه كل الأبواب وفي كل المجالات. فلم يبق أمام الإنسان الضعيف والمقهور إلا الاستجابة لهذا الواقع، ومخالطة أهله؛ أو يئن تحت وطأة واقعه الخاص حتى يجعل الله له مخرجًا. ولا مخرج إلا بالرجوع السريع إلى المنهج الوسطي الذي درسنا خصائصه وعلمنا مقاصده ورأينا نتائجه. إن السبيل الأوحد هو مدارسة النصوص القرآنية الإنسانية التي أعجزت وما زالت، السابقين واللاحقين، للاستضاءة بأنوارها، والتدرج في أطوارها لاستخراج أنواع الهدايات الكامنة في معانيها والمتسربلة في مبانيها. حينها سنفاجأ بهدايات موضوعية رائعة، وهدايات منهجية تذكرنا ببركتها وأسرارها الحق فيها.

السؤال الثامن:

من خلال ما ذكرتموه نستطيع القول: إن الواقع البحثي للدراسات القرآنية يزخر باهتمام كبير من لدن متخصصين وباحثين مهتمين، فما هي في نظركم أولويات البحث في الدراسات القرآنية التي من شأنها أن تزيد من ريادة هذا المجال مستقبلًا في الساحة المعرفية؟

أولوية الاشتغال على النصوص والمصطلحات: لم أجد ما أعبر به عن أهمية درس ومدارسة القضايا القرآنية، خيرا من قول عميد الدراسات المصطلحية في المغرب الشاهد البوشيخي حفظه الله في كتابه دراسات مصطلحية فيما مضمونه أن المصطلحات سبيل يعول عليه لإعادة بناء الذات التي فقدت أهم معالمها؛ وقد بات هذا الفقدان يهدد هذه الأمة تهديدًا حقيقيًا بالفناء، نعم...ذلك أن تعويل الدراسات القرآنية على الجانب المصطلحي يقيها شرور الاستلاب والتقليد، ويعينها على تلمس طريق التأصيل والتجديد.

أولوية الإعجاز القرآني: في زمن العولمة قد نصدق المثل:»رب ضارة نافعة». ونحن لا نعدم وجود قضايا ومباحث غاية في الأهمية والفاعلية للجواب على كثير من أسئلة العصر وتحديات الحياة الراهنة. ذلك أن من خصائص هذا النص القرآني، المؤيد بالحفظ الرباني، صالحيته لكل زمان ومكان أي: الاستمرارية. ففي الوقت الذي نجد فيه بعض الذين في قلوبهم مرض، يروجون أن زمن القرآن انتهى وذهب بذهاب الذين نزل فيهم؛ ونسي هؤلاء المهرطقون أن النص القرآني تحدى أسلافهم من المنكرين، كل حسب مجاله. بدءًا بمن ادعوا امتلاك زمام اللغة والفصاحة والبيان، ومرورًا بكل من ادّعى دعوى أو ألقى شبهة، إلى اليوم. وليس هذا إلا غيض من فيض دلالات قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾. هذا النص العظيم يفيد التحدي اللامحدود، تحدٍ يعم الزمان والمكان والإنسان، وقد اجتمع كثير من المشككين، وما زالوا، يدبرون ويقدرون ماذا يفعلون بدون جدوى. وما أشبه

اليوم بالبارحة. فإن كان بعض المهتمين أماطوا اللثام عن بعض جوانب النص القرآني في مجالات اللغة والبيان، والتشريع وغيرها من صور إعجازه، فإن دهشة علماء العصر من أولياء وأدعياء لا تتوقف نتيجة ما لامسته نتائج دراساتهم، وأسرار أبحاثهم من قضايا علمية غطت كل مجالات الحياة. وهذا مجال أقدر أن أهل الدراسات القرآنية مسؤولون عن التذكير به وبيانه، ومدارسته وإعلانه خاصة للشباب الهائم على وجهه، الجاهل بكثير من حقائق وفضائل وخيرات القرآن الكريم. كما أن اهتمام الدراسات القرآنية بمبحث الإعجاز سيكون مدخلًا سهلًا ومنهلًا سائغًا لمن يبحثون عن الإثارة، ويطلبون الجديد.

هكذا يؤيد كتاب الله المسطور من خلال نصوصه الدامغة، ما جَلّته الاكتشافات العلمية وما تزال تبينه من خلال صحائف كتابه المنظور، يوما بعد يوم. ولو أردنا بيان النصوص التي أماط أهل المخابر عن معانيها اللثام، لاحتجنا إلى تفاصيل يضيق بها المقام. وحسبي التذكير ببعضها، ولمن شاء التفصيل فليرجع إلى مظانها، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ الفرقان الآية: ٦١. وقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ الحجر الآية: ٢٢. وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ الرحمن الآية: ١٩-٢٠.

أولوية الهدى القرآني (موضوعًا ومنهجًا): لقد أمرنا الله بالسير في الأرض والنظر وأخذ العبر، والنظر في الكتاب المنظور وهو الكون، كما سبقت الإشارة، والكتاب المسطور وهو القرآن، ونتأمل من خلال دراسات قرآنية موضوعية في عدد من القضايا وفي شتى المجالات، سنهتدي بدون شك إلى التي هي أقوم، عقيدة وتشريعًا وأخلاقًا.

كما أن منهج القرآن في هدي الإنسان ونقله من النظر إلى التطبيق ومن النص إلى الواقع جلي بين للعيان: وقد كتب الناس فيه من قديم الزمان، وتزاحمت الكتابات في هذا الأيام، حول منهج القرآن في كثير من قضايا الإنسان فقهًا وتنزيلًا. وقد كان من حسنات المدرسة الإصلاحية في العصر الحديث، أن اهتمت بمبحث «الهداية» كما فصل القول في ذلك مدرسة المنار التي أيقظت جذوة نور طال انتظارها. حيث بدأت روح الإصلاح والعمل على إيقاظ الأمة من سباتها، فامتدت إلى عدد من بقاع العالم، شرقًا وغربًا. وبالرغم من بعض ما سجل على بعض أعلام مدرسة المنار من مؤاخذات، فإني أعتبر عملها في هذا الاتجاه خطوة شديدة الأهمية في ظرف حساس تحتاج فيه المجتمعات المسلمة بل الإنسانية الحائرة من يأخذ بيدها.

السؤال التاسع:

تزخر ساحة الدراسات القرآنية بحراك بحثي واسع، فهل ترون البحث الجماعي أولى من الاشتغال الفردي؟ وكيف تنظرون إلى مستقبل الدراسات القرآنية في ظل نهج العديد من الخبراء لسياسة إنشاء المراكز البحثية والمخابر العلمية؟

صدق من قال: **لا يكون للباحث إشراق حتى يكون له احتراق**. لا مفر من طريقين أساسين، الدرس والمدارسة. وهو منهج يمكن استلهامه من شرعنا الحنيف. فقد قسم الله واجباتنا في هذه الحياة بين ما هو جماعي وما هو فردي. وقد يكون من حكم ذلك التدرب على الأعمال في أوقات وأمكنة وأزمنة محددة، ليتسنى لنا العمل بها على أكمل وجه في عموم مجالات الحياة وفي كل الأوقات. وباستقراء التاريخ نلحظ أن كل العلماء والمفكرين كانت لهم»كهوف» خاصة للتزود قبل الخروج على الحياة العامة. وقد كان أعلام أمتنا يشرعون في تعليم أبنائهم وتكوينهم عبر حفظ النصوص في مختلف المجالات والعمل على فهمها أولا، وبعد أن يستأنسوا بالعلم وخباياه، ينطلقون في المناظرات والحوار إلى التأليف والتصنيف. وهذا الذي وقفنا عليه في سير عدد منهم أمثال الفقهاء الأربعة، وقبلهم أعلام المدينة السبعة، وبعدهم خلق كثير. لذلك نؤكد اليوم أنه لا بد من الاعتكاف والدرس لما كتب خاصة من طرف أمهات المصادر، للوقوف على مضامين النصوص وحقائق العلوم. فلا قيمة لدراسات قرآنية بنيت على المنتوج البشري وعولت عليه؛ ولا معنى لدراسات قرآنية لم تنطلق من النصوص القرآنية وفق القواعد المقررة في هذا الشأن. بل المطلوب الجمع بين محاسن ذلك.

أما المدارسة، فهي الفعل الجماعي، أو التمحيص والتقييم لما عكف الباحث على درسه. فبالمدارسة يوزن الدارسون، وتفتح المغاليق وتتكشف الحقائق. وكثير من الأعمال الكبيرة في الدراسات القرآنية اليوم لا يقوم بها إلا فرق للعمل حقيقة. إذ إن تناسل العلوم وكثرة المناهج وتعدد المجالات، غلّقت الأبواب أمام العمل الفردي، إلا بغرض الدرس والتحصيل.

نعم هناك نماذج مشرقة على قِلتها في أوطاننا، لكنها لم تبلغ بعد أشدها. وباستثناء ما تقدمه بعض أقسام الدراسات القرآنية في عدد من الجامعات الدولية، وهي عبارة عن مشاريع تتعلق بالشواهد أكثر من تعلقها بالبحث العلمي بعيد الأمد. فهناك بارقة أمل تلوح في الأفق من خلال بعض المراكز العلمية الدولية، مع ما يستوجب التعويل عليها من حذر، منها على سبيل المثال: مشروع «كوبوس كورانيوم» لأكاديمية «برلين براند نبورغ» للعلوم، والذي تهتم بالعمل على جمع مخطوطات القرآن فكل أنحاء العالم ودراستها، وهو مشروع ضخم يشتغل حوله

عدد كبير من الباحثين. ومنها أيضا «الجمعية الدولية للدراسات القرآنية» وقد عقدت أول مؤتمرها بأندونيسيا عام ٢٠١٥، ويشتغل بمشاريع الجمعية عدد من الباحثين من مختلف الديانات والثقافات، أما على المستوى الداخلي فتوجد أعمال متواضعة هنا وهناك لا يمكن مقارنتها بما سبق من مؤسسات رائدة في هذا الفن.

السؤال العاشر:

هل يمكنكم الإدلاء بمقترحات لمشاريع بحثية تكون لها آفاق مستقبلية زاخرة في إثراء وإغناء حقل الدراسات القرآنية في المغرب خاصة والعالم الإسلامي عامة؟

قد يكون من قبيل العبث الحديث عن الآفاق دون استحضار الواقع، ولا طلب الأهداف دون توفير الشروط. لكن باب الأمل يدفعنا للتفكير في مزاحمة العالمين في البحث عن أجوبة للتحديات التي يعيشها إنسان هذا العصر. علما أن مشاكلنا في فقه النصوص فقها مواكبا للتحديات أولًا، ثم في تنزيل النصوص وفق المتطلبات من جهة ثانية، وبين هذا وذلك تداريب وخبرات عبر مختلف المجالات.

على مستوى الباحثين في حقل الدراسات القرآنية، فإن التعويل على مُسائلة النصوص القرآنية، والعمل على التسلح بمحكم الأدوات والمناهج لمدارستها، وعدم الاتكاء على كثير من المنتجات البشرية فيها، أمر بات ملزمًا للخروج من شرنقة التقليد. وذلك من خلال الاهتمام بالبحث في القضايا الراهنة والعمل على إنشاء بنك معلومات من عصارة الدراسات والتقارير التي يقوم بها المشتغلون في حقل الدراسات القرآنية، بالتنسيق مع خبراء في عدد من المجالات، والعمل بمنهج التكامل المعرفي بين الباحثين في مختلف المجالات ذات الصلة. وأقدر أن هذا الأمر لا يستطيعه إلا جهة مؤمنة بالمشروع حاملة لهم الأمة آملةً في وعد الله للعاملين بمقتضى شرعه. علما أن المشاريع الحقيقية يجب أن تنبع من الفريق المعني بناء على ما بين يده من بنك معلومات، ووفق ما يملكه من وسائل وإمكانات، وما يرتبه من أولويات، بحسب المكان والإنسان المستهدف. ومن ذلك للتمثيل فقط:

- قضايا الحقوق والواجبات والربط بينهما في الرؤية القرآنية.
- التخليق على مستوى الفرد والإدارة والمجتمع، وتلك قاصمة الظهر بالنسبة للأمة اليوم.
- الأسرة والتحديات التي تواجهها. وما نعيشه من معضلات تفرض تعميق النظر فيها.
- الأمن الخاص والعام، وهذه القضية مطية جل المصائب التي ابتلي بها العالم المعاصر، وكيف تسهم رسالات القرآن في المساعدة على تحقيقه.
- المسؤولية والكسب وأهمية ذلك في تحقيق التنمية الشاملة والتخلص من التبعية.

- استصحاب النفَس التعبدي والرسالي، في مدارسة هذه القضايا، حتى لا تكون كلامًا بلا معنى وجسدًا بدون روح.
- التركيز على البعد الإنساني في هذه الدراسات. انسجامًا مع أهداف رسالات القرآن.
- الاهتمام بمجال الإعجاز في الدراسات القرآنية، وذلك لكونها أقرب للتأثير في نفوس الناس عمومًا والشباب على وجه الخصوص.
- اعتماد منهج التكامل المعرفي في دراسة القضايا. وإلا سيبقى هذا العمل صيحة في واد.
- الاهتمام بالقضايا التي يطرحها الأعاجم المهتمون بالدراسات القرآنية، حتى نستفيد من التحديات التي اعترضت طريقهم، والأسئلة التي شغلت بالهم.
- أما على مستوى الدول والمجتمعات: فلم لا يتم التفكير في مؤسسات من قبيل ما استحدث في مجالات التكوين المهني، أو على غرار المختبرات والمؤسسات والمراكز العلمية، ينتخب إليها الأكفاء من ذوي الهَمِّ والهِمم والعمل العمل على:
- إيجاد مجموعات للتفكير في تحديات مجال معين، من خلال جمع ما يتعلق به من قضايا واقتراح خطوات إجرائية لتفعيلها، عبر التنسيق والتشارك مع خبراء في تخصصات ذات أهداف مشتركة.
- إيجاد فرق بحث في تحليل النصوص ومدارستها، وتحديد قضاياها.
- خلق تخصصات للدراسات القرآنية المهتمة بمجالات بعينها. (مجال التخليق- مجال الإبداع والجودة- مجال طرق الكسب ومجالاته- العمل الاجتماعي...) وقد رأيت نماذج من التكوين في مجال العمل الاجتماعي ببعض الجامعات الأمريكية، فهالني ما رأيت من إبداع في فرق العمل، ومن حرص من جانب المؤسسات المستقبِلة للخريجين. بل إني ذُهلت لما علمت أن كل الطلبة المتمدرسين في السنة الأخيرة من ذلك التخصص تم قبول تعيينهم جميعًا بعدد من المؤسسات الرسمية والمدنية، بل ويطلبون المزيد.
- خلق جوائز ومباريات ومسابقات، على غرار ما يقع في المجالات الثقافية والفنية، وتحفيز وتكريم الشباب المقبلين عليها.

السؤال الحادي عشر:

من خلال تجربتكم في البحث العلمي وخبرتكم في التدريس الجامعي؛ ما هي خلاصة رؤيتكم التي تقدمونها إلى الجامعات والمراكز العلمية من أجل النهوض بحقل الدراسات القرآنية في العالم الإسلامي؟

لا يمكنني إلا أن أنصح نفسي وكل مهموم ومهتم مشتغل بالدراسات القرآنية إلا أن أقول أمرين:

أولًا: من جهة الهم: أي الهم الذي نحمله في صدورنا اتجها هذا الفن - الدراسات القرآنية- علينا أن نتذكر دائما ما ورد في القرآن الكريم:

سارعوا، وسابقوا، وجاهدوا، وصابروا، ورابطوا. وعلينا أن نعلم تضحيات العلماء من أجل العلم. فقد نام عطاء بن أبي رباح بالمسجد من أجل طلب العلم ثلاثين سنة؛ وقد مشى الإمام أحمد ثلاثون ألف ميل من أجل طلب العلم. وروى ابن حبان عن ألف شيخ؛ وكرر المزني رسالة الشافعي خمسمائة مرة؛ وكتب ابن تيمية أربع كراريس في اليوم تفرغ الواحدة منها في أسبوع؛ وكان ابن اسحاق الشيرازي يعيد درسه مائة مرة، هكذا سطعت هذه النجوم في الأعالي لتضيء لنا الطريق. وعلينا ألا نضيق ذرعا بالمحن فإنها تصقل الإنسان، وتقدح العقل، وتشعل الهمم.

ثانيًا: من جهة الاهتمام: أي الاهتمام العلمي أو بالأحرى العمل الأكاديمي، فلا سبيل للجامعات والمراكز العلمية في العالم الإسلامي لتجاوز التقهقر المشهود، والسير قدما بالدراسات القرآنية ومنحها ريادتها العلمية التي حقت لها بين مختلف العلوم والفنون إلا بالإيمان بأن زمن العمل الفردي قد ولى. وأن العمل الجماعي صار هو المعول عليه، ولا شك أن الجميع يلحظ الفرق بين الأعمال العلمية التي اعتنت بها فرق بحثية، ولين الأعمال والانجازات ذات الاشتغال الفردي.

كما أن زمن التقليد قد انتهى وخاصة في واقع عصيب كثرت مستجداته وتشعبت نوازله، ومنه فإن الجامعات والمراكز العلمية ذات اهتمام بهذا الفن مطالبة بخوض غمار الاجتهاد المنضبط أثناء ممارسة الدرس القرآني، وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى ضرورة الاستفادة من المعارف والعلوم الحديثة وهو أمر مهم للغاية؛ لما يثمر عن ذلك من مساهمة في سير العلوم واستمرارها في ظل هذه المتغيرات والمستجدات اللامتناهية التي لا ينفع منفع معها التقليد.

وأن منهج البحث عبر التكامل المعرفي قد لاحت معالمه وفرض نفسه؛ ومنه يجب على المؤسسات بمختلف أطيافها أن تتبنى رؤية تكاملية تداخلية للعلوم تنطلق من الخطاب القرآني ليكون بمثابة مفاصل يشد بعضها بعضا، وقد أشرنا في أحد الأسئلة السابقة أن الأنساق العلمية والتخصصات والتقسيمات في عدة مجالات باتت تعاني من أزمة امتداد مما نتج عنه دعوة من جديد إلى إحياء الاهتمام بالتكامل والتداخل المعرفي في شتى ميادين المشهد العلمي الراهن والدراسات القرآنية ليس ببعيدة عن تحقيق هذا الطرح، وهذا ما نود أن نلفت إليه الانتباه ألا وهو دراسة القرآن دون أدنى قطيعة أو حواجز بين مختلف المعارف والعلوم وخاصة التي تمخضت عن مركزية القرآن.

وختامًا على هاته المؤسسات قاطبة إدراك حق الادراك أن روح البحث العلمي يكمن في الشرط التعبدي الذي هو أساس ومنطلق وغاية.